تعد هذه النظرية من أهم النظريات التي ثارت على الفكر السلوكي وعارضة النزعة البنيوية المعاصرة بوصفها نزعة صورية شكلية تهتم بتحليل نسق اللغة، فحاولت هذه النظرية أن تؤكد أن الإنسان مبتكر مجدد للغته.

واعتمدت النظرية البيولوجية على المنهج الاستبطاني في التحليل والبرهنة قصد التوصل إلى نتائج موضوعية، فهي بهذا من أشهر النظريات الذهنية التي حاولت اكتشاف الحقائق العقلية الكامنة وراء السلوك.

١- تعريفه النظرية البيولوجية

النظرية الفطرية أو اللغوية أو البيولوجية أو النظرية التوليدية وجميعها مسميات لفكر واحد يعود إلى نظرية تشومسكي التي تعتمد على النزعة العقلية، ويمثل هذا الاتجاه في تفسير عمليتي اكتساب اللغة والتعلم " لونا من المدخل التوليدي، والمصطلح مأخوذ من تأكيد التوليديين أن اكتساب اللغة موجود في الإنسان بالولادة، أي أننا نولد بجهاز داخلي من نوع ما يوجهنا إلى اكتساب اللغة ، أي إلى إدراك اللغة التي حولنا إدراكا منظما والى إنتاجها بعد أن يتم استيعابها داخليا"

حاولت هذه النظرية شرح وتفسير آلية اكتساب اللغة وكذا المعارف المختلفة ، من خلال تبنيها للطرح القائل أن الإنسان يملك خصائص نظرية تفسر لنا كيف يستطيع الطفل أن يتقن لغة في وقت قصير، حيث تشبه هذه المعرفة الفطرية صندوقا صغيرا أطلق عليه " جهاز الاكتساب".

لذلك فقد رفض التوليديون أطروحة السلوكيين القائلة أن الإنسان يولد صفحة بيضاء،وأن المحيط الخارجي هو الذي يكسبه المعارف والخبرات في إطار ثنائية مثير استجابة عن طريق التجربة، فهم يؤكدون " فرضية ما يعرف بالفطرية أي الوجود الأولي للأفكار والبنيات المعرفية"

والفطرية بهذا الطرح تعني الاستعداد البيولوجي الخاص عند الإنسان للاكتساب، وهو استعداد قبلي لا يتدخل فيه المحيط، أي تم تفسير عملية التعلم على أساس وجود نماذج خارجية.

٢- المرجعيات الفلسفية والمعرفية للنظرية البيولوجية

تنطلق هذه النظرية من فكرة وجود قدرات نظرية يملكها العقل البشري، وتنسب للساني تشومسكي، وارتكز في بناء فكره هذا على المنطلقات التالية:

أ- **النزعة العقلية عند ديكارت:** تأثر تشومسكي بآراء المدرسة الفلسفية العقلية التي سادت في القرن السابع عشر، إذ وحد تشومسكي في آراء ديكارت عن العقل ما يمكن أن يعطي الشكلية التي طبعت الدرس اللغوي ظلالا تجسد الملامح الحقيقية لبنية اللغات، لذلك عد تشومسكي " من مسلك العقلانيين الذين يرون أن العقل الإنساني وسيلة المعرفة، على النقيض من الوصفيين الذين ينتمون إلى التجريبيين ممن يرون أن الوصول إلى المعرفة يتم عن طريق التجربة.

فاللغة عند ديكارت من مميزات البشر، وهذه القدرة على إنتاجها لا ترجع إلى وجود الجهاز النطقي، وإنما إلى ارتباط الفعل اللغوي بالعقل، وبهذا " كان ديكارت سباقا إلى القول بفطرية اللغة التي تعد من الأفكار اللغوية التي كان لها تأثير كبير على مسار الدرس اللغوي منذ القرن السابع عشر"، كما تأثر تشومسكي بفكرة ديكارت الذي يقصر مهمة تفسير النشاط اللغوي على ظاهرة اللغة (الأداء)، وإنما لابد من الانتقال إلى استنباط القواعد التي تكون أساس اللغة والتي تشكل المعرفة الحقيقية للغة، كما دافع ديكارت على أن الإنسان يملك " قدرات فريدة لا يمكن تفسيرها تفسيرا آليا، وإن صلح هذا التفسير أحيانا في ميدان الوظائف الحيوية والسلوكية للإنسان، وأن أظهر هذه القدرات وأعظمها هي اللغة الإنسانية التي تحدها الارتباطات أو قوالب تعبيرية ثابتة، وهذه القدرات هي التي تجعل من الطفل قادرا على إتقان اللغة في وقت قصير جدا رغم الطبيعة التجريدية لقواعد اللغة.

ب- نحو بورواياال: و تأثروا بتصورات الفلسفة العقلانية لاسيما بفكرة وجود تطابق تام بين البنيات المنطقية والبنيات اللغوية، أي أن اللغة في عرفهم ليست سوا تعبير منطقي عن الفكر " لذلك سعوا إلى وضع قواعد نحو عام ينطبق على جميع اللغات البشرية لأنها مهما اختلفت وتنوعت وتعددت تلتقي في كونها تخضع للقواعد نفسها التي تجسدها هذه المقولات العقلية العامة عند الإنسان".

لذلك عدت أفكار تشومسكي سيما تحليله اللساني صيغة عصرية واضحة لنحو بورواياال مع وجود اختلافات ملحوظة متعلقة بطبيعة القواعد المعتمد عليها.

كما استوحى تشومسكي منه أيضا فكرة (هومبولدت) المتعلقة بالإبداع والخلق اللغوي، أي أن المتكلم قادر على إنتاج عدد لا متناهي من التراكيب انطلاقا من نموذج واحد، ذلك أن " اللغة في حد ذاتها ليست بناءا تاما ولكنها نشاط في مرحلة الإنجاز، وأن تعريفها لن يكون إلا تكوينا "، والمتأمل لمفهوم البنية العميقة والسطحية عند تشومسكي قريب جدا من مفهوم البنية الداخلية والخارجية عند هومبولدت، وهذه الخلفيات كلها أدت إلا تبلور تصور لغوي جديد يفسر عملية الاكتساب، وإلا رفض أفكار السلوكيين، والثورة على البنيوية التي نظرت إلا نصوص اللغة الخارجية وفسرتها لذاتها وفي ذاتها، لذلك صارت نظرية تشومسكي ثورة عملية غيرت الآفاق وطريقة النظر إلى اكتساب اللغة، والتعلم على العموم.

٣- مبادئ النظرية البيولوجية:

شغلت قضية اكتساب المعرفة اللغوية بالتحديد مركز الصدارة عند رواد هذه النظرية سيما تشومسكي ولينبرغ، فتم تناولها ضمن الإطار العقلاني -الذي أشرنا إليه سابقا- ويمكن أن نحدد أهم الأفكار التي دافع عنها تشومسكي وأتباعه في :

أ- **اكتساب اللغة:** لقد اعتقد العلماء حتى سنة ١٩٥٠ أن اكتساب اللغة يحدث من خلال " التمثيل القياسي لملاحظة أنماط الجمل الحاصلة في التعبيرات التي يسمعها الطفل ويفهمها، وهذا ما فضله الأشخاص الذين يميلون إلى التفسير السلوكي".

دحض تشومسكي هذه التصورات السلوكية التي نادى بها سكينر وغيره، معلنا أن اكتساب المعرفة اللغوية يعتمد على نموذج فطري خاص بالإنسان دون غيره من الكائنات، يمكن هذا الفرد السوي من اكتساب اللغة واستعمالها، ثم تشكيل قواعدها، فنادى تشومسكي بأن الطفل " يولد وهو مزود بقدرات فطرية تؤهله لتقبل المعلومات اللغوية، ولتكوين بنى اللغة، أي أن له قدرة على تكوين قواعد لغته من خلال الكلام الذي يسمعه، فهو يمتلك بطريقة لا شعورية القواعد الكامنة ضمن المعطيات اللغوية التي يسمعها".

لقد قام تشومسكي بتحليل المعرفة اللغوية إلى أربعة عناصر تغطي جوانب تلك المعرفة، من خلال طرح التساؤلات التالية:

١- ما الذي تتألف من معرفة اللغة؟

٢- كيف تكتسب معرفة اللغة؟

٣- كيف تستخدم معرفة اللغة؟

٤- ما العمليات التي تدخل في تمثيل هذه المعرفة واكتسابها واستعمالها؟

إذن ينبني التصور البيولوجي للاكتساب على أن " العقل الإنساني ليس صفحة بيضاء، أو وعاء فارغا لا عمل له إلا انتظار الانطباعات والمعلومات التي تنطبع عليه من الخارج، فالمخ مزود وراثيا ببرنامج غني ومفصل بوضوح الاستقبال وتفسير وتخزين واستعمال المعلومات العشوائية التي تزوده بها أعضاء الحس".

أي أن الطفل يولد ولا يكون مهيئا لاكتساب لغة معينة أو معرفة محددة ولكن لديه القدرة على اكتساب أي لغة أو معرفة عشوائية، وما يحددها هو البيئة التي يعيش فيها.

إذن فالصلة وثيقة بين المعرفة والعقل الإنساني حيث يكتسب الإنسان المعرفة اعتمادا على البيئة العقلية الفطرية التي تمثل جوهر اكتساب المعرفة، فالعقل ملكات خاصة تقدم لنا معرفة حدسية، وهذا ما سماه تشومسكي بملكة اللغة التي تمثل البنية العقلية الفطرية المحددة وراثيا وبيولوجيا، والتي بدونها لن يكتسب الإنسان أي معرفة.

ب- فطرية اللغة (اللغة ملكة): تقوم الأطروحة الفطرية عند تشومسكي على الاعتقاد بأن اللغة ترتكز على مخزون غني من المبادئ والأفكار الفطرية، أين تم الربط بين عملية الاكتساب، والنضج البيولوجي، رغم أن اكتساب اللغة أكثر مماثلة للتحديد الجيني للمهارات كمهارة المشي على القدمين أو الكتابة، فالطفل يولد وهو غير قادر على المشي أو الكتابة، ومع ذلك يتمتع باستعداد بيولوجي للكتابة لأن تعلم هذه الأخيرة متعلق بالتدريب والتمرين، فاستعمال اللغة يماثل المشي على القدمين".

ويستند تشومسكي في نظريته على وجود اللغة ملكة بعدها البنية الفطرية التي تمثل جهاز اكتساب اللغة ، وشبه بأنه صندوق أسود صغير افتراضي، يمتاز بالخصائص التالية:

١- القدرة على تمييز أصوات الكلام من الأصوات الأخرى الموجودة في البيئة.

٢- القدرة على تصنيف الأصوات اللغوية إلى أنواع يجري تهذيبها لاحقا.

٣- الاختيار بين ما هو ممكن وما هو غير ممكن من الأنظمة اللغوية.

٤- القدرة على إنتاج نظام لغوي مبسط بما يتوافر من مواد.

فالمعرفة الفطرية آلية عقلية تجعل من الطفل على قدر من الحساسية للفونيمات والوحدات الصوتية، والتراكيب اللغوية والمعاني، كما يضم هذا الجهاز قواعدا تنطبق على جميع اللغات، إذ يقوم بإعداد المعلومات ومساعدة الطفل على تحصيل وفهم مفردات وقواعد اللغة التي تمكنه من تفسير وتكوين الجمل.

ويؤكد تشومسكي أن الملكة اللغوية ما هي إلا ملكة من ملكات العقل المتعددة والمختلفة. ومن الواضح أن فكرة جهاز اكتساب اللغة قد فتحت المجال لاحقا لدراسة مختلف القضايا المتعلقة بالاكتساب كالبحث عن طبيعة المعنى، التجريد، والإبداع، رغم أن الجهاز افتراضي غير مرئي.

ج- النمو لعام (الكلية): يؤكد تشومسكي أن الطفل يولد بمعرفة فطرية، وهذه الخاصية كلية عند جميع البشر، أي أنه يقر بوجود أنماط لغوية ومعرفية مشتركة بينهم، فهم مبرمجون بيولوجيا لاكتساب اللغة وفي تقدمهم من مرحلة إلى أخرى، كما أن كلية اللغة تشير إلى أن الناس يكتسبونها بطريقة واحدة، ولقد سمى تشومسكي هذه المبادئ الكلية الموجودة في الإنسان على نحو فطري بيولوجي ب" النحو العام "، ويقصد به أن المتكلم يعرف مجموعة من المبادئ العامة التي تنطبق على كل اللغات، وذلك أن " اللغة ملكة فطرية، وذلك يعني أننا ولدنا ولدينا نسق من القواعد تدور حول اللغة في عقولنا، وتسمى بالنحو العام"، وعلل تشومسكي فكرة وجود النحو الكلي بالسهولة التي يكتسب بها الأطفال اللغة الأم، كما أنهم يستنتجون القواعد من اللغة التي يسمعونها لإنتاج الجمل التي لم يسمعوها من قبل، ويؤكد تشومسكي صحة نظرية النحو العام بهذه الحقائق:

١- تستخدم كل اللغات الإنسانية سلسلة متناهية من الأصوات المتميزة التي تجتمع حتى تشكل عناصر ذات معنى، هي نفسها تشكل سلسلة لا متناهية من الجمل الممكنة.

٢- تحتوي كل اللغات على قواعد صياغة الكلمات والجمل ذات نوع متشابه.

٣- تتشابه المقولات النحوية في كل اللغات (الاسم، الفعل...).

٤- هناك كليات دلالية مثل: مذكر، مؤنث، مفرد، جمع،...موجود في كل اللغات.

٥- يستطيع المتكلمون في كل اللغات إنتاج وفهم سلسلة غير متناهية من الجمل، وتكشف الكليات التركيبية أن كل لغة لها طريقتها في صياغة هذه الجمل.

٦- يستطيع أي طفل طبيعي في اي مكان من العالم ان يتكلم لغه، الاختلاف الموجود بين اللغات لا يعود لأسباب بيولوجيه بحتة.

فالقواعد الكلية هي التي تقوم بضبط الجملة المنتجة، كما يختار هذا المتكلم من القواعد اللغوية ما يتصل بلغته من قواعد وقوالب، هذه الأطر الكلية العامة الموجودة في دهنه متساوية عند جميع البشر، وتكون في الإنسان منذ ولادته ثم يقوم بملئها بالتعابير اللغوية من المجتمع الذي يعيش فيه فتتضح وتقوى بالتدرج، وكلما اكتسب الإنسان ما يملا به هذه الكليات الفطرية، ازداد النمو الداخلي التنظيمي للقواعد كليه في ذهنه في جزئيه منها، وهي تلك المسئولة عن بناء الجمل وتركيبها في لغته، فتكون لديه القدره على توليد الجمل وبنائها.

وعلى هذا تكتسب اللغة انطلاقا من حالة معرفية أساسية محدده بيولوجيا والمختص بالقواعد الكلية للغة.

د_القدرة اللغوية (الأداء اللغوي)

قدم تشومسكي المصطلحين لأول مره سنه ١٩٦٢ مؤكدا أن الفكرة تعود إلى تمييز ديسوسير بين اللغة والكلام، رغم أنه يشير إلى الاختلاف بينه وبين سوسير قائلا: "التمييز الذي ذكرته بين القدرة والأداء يرتبط بتمييز سوسير بين اللغة والكلام، لكن من الضروري رفض تصور سوسير للغة لأنها مجرد مخزون تصنيفي للمفردات، بل ترجع بالأحرى إلى تصور همبولدي عن القدرة الضمنية من حيث هي نسق من العمليات التوليدية.

وتعرف القدرة أو الكفاية بأنها معرفه الإنسان الضمنية باللغة، أو بالأحرى هي معرفه الإنسان الضمنية بقواعد اللغة التي تقود عملية التكلم بها. أي القدرة على إنتاج الجمل وفهمها، وهذه القواعد الضمنية هي التي تجعل المتكلم أو السامع قادرا على إنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل النحوية التي لم يسبق له أن أنتجها أو سمعها. وتتضمن هذه القدرة أو الكفاية اللغوية ما يلي:

1_إنتاج عدد لا حد له من الجمل وإدراكها من الناحية النظرية.

2_تمييز الجمل الصحيحة من غيرها.

3_فهم الجمل.

4_تمييز الجمل التي يكون بعضها صياغة جديدة للبعض الآخر.

فالقدرة اللغوية هي القواعد المستنبطة من المتكلم والتي تشمل معرفته اللغوية، وقد ركز عليها تشومسكي أكثر من تركيزها على الأداء، لأن قواعد اللغة عنده وصف للقدرة الحقيقية للمتكلم والمستمع، ويعود هذا التركيز على القدرة أيضا إلى أنها تسبق الأداء وجودا، وهي التي تولد أيضا، فالأداء يفترض سلفا وجود القدرة في حين لا تفترض القدرة سلفا وجود الأداء، وعليه فالأداء تابع للقدرة، أما الأداء فهو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين، أي أن الأداء يقتضي التحقيق الفعلي للقواعد الضمنية التي يمتلكها الفرد على لغته.

غير أن الأداء لا يطابق دوما القدرة الضمنية التي تتسم بالتجريد، وهذا ما يفسر انحراف الكلام عن القواعد، تغير الهدف، وقوع التلميذ في الخطأ، نتيجة لهذه العوامل:

1_المقام والظروف التي ينجز فيها.

2_الحالة النفسية للفرد.

3التفاوت الحاصل في المستوى الثقافي للأفراد.

هـ – ابداعيه اللغه: هي إحدى مميزات الإنسان عن الحيوان لأنها القدرة التي تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على إنتاج وفهم عدد غير محدود من الجمل التي لم يسمعوها من قبل، لقد استمد تشومسكي فكرته هذه من ديكارت إذ يقول: "السمة الإبداعية للاستعمال العادي للغة ليست اكتشافا جديدا، بل تمدنا السمة الإبداعية بالاستعمال العادل للغة بدعامة مهمة لنظرية العقل عند ديكارت. وتحكم هذه السمة ثلاثة عناصر متميزة تطبع السلوك اللغوي المتكلم هي: الاستعمال الطبيعي للغة، تحرر المتكلم من المثيرات في استعماله للغة، التماسك بين الاستعمار اللغوي وظروف المتكلم.

٤_ التعلم وفق النظرية البيولوجية

دافع شومسكي وتابعيه عن فكره " فطريه اللغة "، وجمعوا مجموعه من الحجج والبراهين لتأكيد منطلقاتهم منها:

–ارتباط السلوك اللغوي بالنواحي التشريحية للفرد.

–التأكيد على وجود مراحل اكتساب الطفل للغة.

–اللغة متطورة عند الطفل ويصعب وقف هذا التطور، كما لا يمكن تعليم هذه اللغة لغير البشر.